

أهمية حاضرة تلمسان في الاستقطاب العلمي والمهني للطبقة العلمية خلال الفترة الزيانية

Tlemcen City's Role in Attracting Scholars and Professionals

during the Zayyanid Era

عبد الكريم طهير^{*1}¹ جامعة أبو بكر بلقايد-تلمسان (الجزائر)، abdelkrim.tahir@univ-tlemcen.dz

تاريخ النشر: 2025/12/10

تاريخ القبول: 2025/11/19

تاريخ الاستلام: 2025/10/05

ملخص:

لم تكن تلمسان في العهد الزياني عاصمةً سياسية فحسب تؤدي وظيفتها الإدارية كمقر للحكم، بل غدت أيضاً منارةً علميةً متميزة في ربوع الغرب الإسلامي. فقد احتضنت عناصر النهضة الفكرية والثقافية، بفضل ما أبداه سلاطين بني زيان من عناية بالعلم وأهله من فقهاء وأدباء ومفكرين، مما جعلها قبلةً يؤمها طلاب المعرفة من شتى الأقاليم الإسلامية. يهدف هذا البحث إلى إبراز مكانة تلمسان كحاضرة علمية وثقافية خلال الفترة الزيانية، من خلال دراسة نماذج لعلماء وافدين على تلمسان، وطلاب علم قدموا إليها ثم تحولوا إلى علماء ومشايخ مستقرين بتلمسان حيث أسهموا بدور فعال في الحياة الفكرية والسياسية والقضائية بما وفرت لهم مدينة تلمسان من بيئة علمية باعتبارها مقراً للسلطة السياسية الزيانية، وفضاءً ثقافياً مفتوحاً للعطاء العلمي والتواصل مع الحواضر الإسلامية الكبرى.

كلمات مفتاحية: حاضرة، تلمسان، الاستقطاب العلمي، الطبقة العلمية، الفترة الزيانية.

Abstract:

Tlemcen, during the Zayyanid period, was not merely a political capital fulfilling an administrative role as the seat of power; it also emerged as a prominent intellectual center in the Islamic West. It gathered the essential elements of intellectual and cultural renaissance under the patronage of the Zayyanid rulers, who gave great attention to scholars, jurists, and literary figures. This environment transformed the city into a destination for students of knowledge from various Islamic regions.

This study aims to highlight the status of Tlemcen as a scientific and cultural hub during the Zayyanid era by examining examples of scholars who arrived in Tlemcen, and students who settled there and later became prominent scholars and teachers. These individuals played an active role in the city's intellectual, political, and judicial life, thanks to the scholarly atmosphere provided by Tlemcen, which served as both a political center and a vibrant cultural space connected to the major Islamic capitals.

Keywords: City-center, Tlemcen, scientific attraction, Scholarly class, Zayyanid period

*المؤلف المرسل

1. مقدمة:

لم تكن تلمسان خلال العهد الزياني مجرد عاصمة سياسية لدولة بني زيان تقوم بدورها السياسي كمركز للسلطة الحاكمة فحسب، بل كانت تلمسان المدينة التي تبوّأت مكانة علمية بين العواصم الإسلامية برغم الظروف السياسية الحالكة التي كانت تواجهها، ولعلّ هذه المدينة قد استمدت مكانتها العلمية خلال هذه الفترة من رصيدها الاجتماعي والفكري، وقد ترجع هذه المكانة إلى النزعة العلمية والثقافية التي تميّز بها السلاطين والأمراء الزيانيين، الذين اهتموا برعاية العلوم والفنون والآداب والعلوم الشرعية ما جعلهم يشجعون العلماء والشعراء والفقهاء والأدباء، حيث جعلوا من تلمسان مجالا مفتوحا للحوار والمناظرة وحرية الفكر، حتّى أصبحت تلمسان من المراكز الثقافية التي تستقطب طلاب العلم من كل الأصقاع.

شهدت تلمسان بفضل رصيدها الحضاري واهتمام السلطة الحاكمة بأهل العلم توافد عدد هام من العلماء، ومن خلال هذا المقال سنقف على أهم طلاب العلم الذين ارتحلوا إلى تلمسان خلال القرن الثامن الهجري، يتعلق الأمر بالأخوين عبد الرحمان بن الإمام، وعيسى بن الإمام ذلك اللذان مثلا أسرة أبناء الإمام، الذين ترعرعا في مدينة "برشك" الواقعة بين تنس وشرشال، ولكنهما لم يجدا ضالتهما في هذه المدينة خاصّة بعد

مقتل والدهما على يد "زيريم"، ما اضطرهما إلى الرحلة إلى تونس ثم إلى فاس من أجل الاستزادة من العلوم المختلفة هناك ولقاء المشايخ. وبعد هذه الرحلة الشاقة في طلب العلم عاد الأخوين إلى بلدهما وانتهى بهما الاستقرار بتلمسان ليكون لهما دور حضاري مهم، امتزج بين العمل السياسي والقضائي والتعليمي، كما كان لهما دور مهم في تكوين جيل من العلماء النبهاء بتلمسان، وبغض النظر عن الدور الذي أداه ابن الإمام فإن هذا المقال سيبحث عن مدى تأثير مدينة تلمسان كحاضرة ثقافية على حجم العطاء العلمي والحضاري للأخوين ابني الإمام، وأهمية المدينة في رقيهما العلمي والمهني.

2. مقومات الحواضر العلمية الإسلامية

شهدت مدينة تلمسان خلال العصر الإسلامي تطورا حضاريا مهما، حتى إذا بلغت العهد الزياني عرفت عصرها الذهبي الذي من جميع المجالات السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، العمرانية، والعلمية، جعلت المدينة تمتلك كل مقومات الحاضرة ذات الرصيد التاريخي الذي يمكنها من صناعة الفعل الحضاري، من خلال استقطاب النخبة البشرية القادرة على جعل المدينة دائما تتوجه نحو التوهج الحضاري، ولعل ذلك راجع إلى امتلاك تلمسان مقومات المدن الإسلامية الكبرى التي صنعت تاريخ الحضارة العربية الإسلامية.

بسبب أهمية المدينة كمركز استقطاب وضع المؤرخون في العصور الوسطى مجموعة من الشروط التي تجعل المدينة قابلة للاستمرار في القيام بدورها الحضاري، فذكر ابن أبي زرع أن المدينة يجب أن تتوفر على خمسة أشياء وهي: النهر الجاري، والمحراث الطيب، والمحطب القريب، والصور الحصين، والسلطان، إذ به صلاح حالها وأمن سبلها وكف جبابرتها (ابن أبي زرع، 1972م، صفحة 15)، ويضيف ابن خلدون وجوب توفر المدينة على طيب الهواء للسلامة من الأمراض (ابن خلدون، 2001م، صفحة 112)، أما ابن القاضي فيزيد عليها وجود قاض عدل، وعالم عامل، وأسواق قائمة (ابن القاضي، 1972، الصفحات 30-31).

من ذلك نفهم أنّ قيام المدن يحتاج إلى توفر الماء قريبا من البلد لأنّه يسهل على الناس أمور حياتهم (ابن خلدون، 2001م، صفحة 112)، ولابدّ للمدينة من مزارع لأنّ الزرع مرتبط بالأقوات، فإذا كانت مزارع البلد بالقرب من المدينة كان ذلك أسهل في اتخاذه وأقرب في تحصيله (ابن خلدون، 2001م، صفحة 112)، أمّا وجود الحطب فضروري للبناء، والطبخ، كما يستخدم كوقود للنيران، وبالنسبة لتوفر المدينة على سور أو مجموعة أسوار فذلك يعني قدرة المدينة على حماية نفسها من الغزاة، ولم يهمل المؤرخون السلطان الحاكم القادر على توجيه الحياة السياسية، وتنظيم شؤون الناس، وتوفير الأمن (ابن خلدون، 2001م، صفحة 112). فهل توفرت تلمسان على هذه الشروط؟

من خلال وصف الرحالة والجغرافيين لمدينة تلمسان نفهم مدى الحصانة التي تمتعت بها المدينة، حيث يتفق معظم المؤرخين على أنّ المدينة عبر تاريخها الإسلامي الطويل كان لها سور حصين متقن الوثاقة يحمها من العدوان (اليعقوبي، 2002م، صفحة 196) (الإدريسي، 1983، صفحة 149)، كما توفرت المدينة على الماء سواء من خلال أنهارها الجارية أو عيونها المتدفقة (البكري، د ت، صفحة 79) (ابن حوقل، 1996م، الصفحات 88-89)، كما وجدت بتلمسان المساحات الزراعية الواسعة فتنوعت غلاتها، فيصف ابن حوقل ذلك بالقول بأنّ "زرعها سقي وغلاتها عظيمة، ومزارعها كثيرة" (ابن حوقل، 1996م، صفحة 88)، ويقول العبدري في نفس السياق "والدائر بالبلد كل مغروس بالكرم وأنواع التمار" (العبدري، 2007، صفحة 82)، كما توفرت المدينة على الشرط الذي أكده ابن خلدون وهو الهواء النقي، فقد وصفها لسان الدين بن الخطيب بقوله: "هواها المقصور بها فريد، وهواؤها الممدود صحيح عتيّد" (ابن الخطيب، 1974، صفحة 192)، أمّا عن السلطان فإنّ المدينة كانت عاصمة سياسية سواء منذ القدم وفي ذلك يقول المؤرخون "كانت دار مملكة لأمم سالفة" (مؤلف مجهول، 1985م، صفحة 135)، ويقول آخر "كانت دار مملكة لأمم سالفة" (مؤلف مجهول، 1985م، صفحة 135).

ويضيف آخر "ولم تزل تلمسان منذ الفتح الإسلامي عاصمة مملكة"، وفي عصر بني زيان أصبحت تلمسان عاصمة لدولتهم، حيث وصف حسن الوزان ذلك بقوله: "وهي عاصمة المملكة" (حسن الوزان، 1983، صفحة 17) أي مملكة تلمسان.

هذه الميزات التي توفرت لتلمسان إضافة إلى حظوتها بالسلطان جعلها تصبح "أعظم أمصار المغرب، ونفقت بها أسواق العلوم والصنائع، وضاهت أمصار الدول الإسلامية والقواعد الخلافية" (ابن خلدون، 2001م، صفحة 113). وبذلك يمكن القول أنّ تلمسان جمعت كموقع وكمدينة كلّ الخصال وزادت على ذلك بمحاسن كثيرة ما جعلها تتحوّل في عصر بني زيان إلى حاضرة جاذبة لكلّ من يسعى إلى الرقي والتقدم.

2. البيئة السياسية للعصر الزباني

1.2 واقع السلطة السياسية بتلمسان الزبانية

منذ نهاية القرن السابع الهجري ونهاية حكم يغمراسن بن زيان المتوفى سنة 681هـ توطّدت أركان الدولة الزبانية، وانتقلت من حالة البداوة إلى طور الحضارة، بعدما حقق مؤسسها عددا هاما من المنجزات الحضارية والعمرانية والعلمية (يحيى ابن خلدون، 1985، صفحة 207) (عبد العزيز فيلاي، د ت، صفحة 115) (التنسي، 1985، صفحة 126)، فكان على خليفته أبو سعيد عثمان بن يغمراسن (681-703هـ/1283-1303م) مواصلة البناء، ومواجهة التحديات السياسية، خاصة منها ما تعلق بمواجهة جيرانه الحفصيين في الشرق، والمرنيين في الغرب، حيث استطاع مهادنتهما من خلال مصاهرة الحفصيين في تونس، ومسالمة المرنيين عملا بوصية أبيه (ابن خلدون، 2001م، صفحة 192)، وبفضل هذه السياسة استطاع بسط سيطرته على كامل المغرب الأوسط ووصلت سلطته إلى حدود بجاية (ابن خلدون، 2001م، صفحة 192) (التنسي، 1985، صفحة 126).

لم تستمر الهدنة بين بني عبد الواد و بني مرين أكثر ممّا كان متوقعا حيث عمل السلطان المريني يوسف بن يعقوب الذي وصل إلى الحكم سنة 685هـ/1286م على

تجسيد نزعتة التوسعية فقام بحصار تلمسان أكثر من مرة (ابن خلدون، 2001م، صفحة 195) (التنسي، 1985، صفحة 130) داق خلالها أهل تلمسان كل أنواع الجوع والغلاء (يحيى ابن خلدون، 1985، صفحة 209) (ابن خلدون، 2001م، صفحة 195)، لكن المدينة أظهرت مقاومة كبيرة ولمدة ثمان سنوات، لدرجة أنّ المرينيين أسّسوا مدينة بديلة عن تلمسان وبالقرب منها سميت "المنصورة" (السلوي، 1954م، صفحة 424) (ابن خلدون، 2001م، صفحة 197).

انتهى الحصار سنة 706هـ/1307م، بعدما قتل السلطان المريني يوسف بن يعقوب، فما كان على أبي زيان ابن الأمير الزياني أبي سعيد عثمان بن يغمراسن وخليفته سوى العمل على إعادة قوة الدولة، لكن حكمه انتهى بوفاته سنة 707هـ/1307م، فخلفه أخاه أبو حمو موسى الأول (التنسي، 1985، صفحة 135)، الذي عاد إلى سياسة المهادنة مع بني مرين، كما عمل على إعادة السيطرة على المناطق الشرقية وإعادة طاعة القبائل (التنسي، 1985، الصفحات 135-136)، لكنّه قتل سنة 718هـ/1318م تحت وطأة التآمر داخل البيت الزياني، فخلّى الجولابنه أبي تاشفين الذي واصل على نفس نهج سلفه (ابن خلدون، 2001م، صفحة 219)، من مسالمة المرينيين، وبسط سيطرة الدولة على المناطق الشرقية، لكن غروره دفع به إلى تحدي المرينيين، وهو ما سيجعل الدولة الزيانية تدفع ثمنا باهضاً، حيث تعرضت إلى حصار مريني سنة 335هـ انتهى باحتلال المدينة من قبل السلطان المريني أبي الحسن لمدة زادت عن اثني عشر سنة، ظلت تلمسان خلالها تحت حكم المرينيين، إلى أن تمكن الزيانيون من استعادة زمام الأمور بقيادة أبي سعيد بن عبد الرحمان سنة 749هـ/1348م (يحيى ابن خلدون، 1985، صفحة 150) (التنسي، 1985، صفحة 149).

2.2 تلمسان قيمة سياسية وحضارية.

من الدلائل على قيمة تلمسان الاستراتيجية أنّها كانت محل أطماع المرينيين منذ تأسيس دولتهم سنة 688هـ، فقد تعرضت مدينة تلمسان للهجمات والحروب المتتالية من

قبل السلطان المريني أبي يعقوب يوسف في عهد أبي سعيد عثمان بن يغمراسن (681-703هـ)، وكانت هناك معارك شديدة تهدف إلى اقتحام أسوار تلمسان لكنها لم تكمل بالنجاح، لأن مقاومة بني زيان كانت شرسة، فكانت المحاولة الأولى سنة 689هـ/1290م، والثانية سنة 695هـ/1296م، والثالثة سنة 696هـ/1297م، والرابعة سنة 697هـ/1298م، أما الخامسة فكانت أعنفها، وأطولها، وقد كانت في سنة 698هـ/1299م (عبد العزيز فيلاي، د ت، صفحة 27).

وحينما استعصت تلمسان على الجيش المريني، قام يوسف بن يعقوب، ببناء مدينة جديدة غرب تلمسان، سماها "المنصورة"، للتضييق على تلمسان وأهلها، وجعلها قاعدة تنطلق منها الجيوش، ويستقبل فيها الوفود، والبعثات الدبلوماسية، ويدير منها شؤون الدولة، فصارت عاصمة سياسية وإدارية، واقتصادية، بديلة لتلمسان طوال فترة الحصار، الذي دام نحو تسع سنوات، بأيامها ولياليها، فصارت المنصورة في هذه الفترة، عاصمة المغرب الأوسط، والدولة المرينية، يخرج منها الرسل إلى مختلف الدول الإسلامية، فقد خرجت منها وفود إلى كل من مصر، الشام، إفريقية، والحجاز، وكذلك إلى الدول الأوروبية، وانطلقت منها القوافل التجارية إلى أصقاع البقاع في المشرق والمغرب، كما كانت تحط بها قوافل السودان (عبد العزيز فيلاي، د ت، صفحة 27).

3.2 الرصيد الحضاري لتلمسان خلال تأسيس الدولة

منذ الفتح الإسلامي أصبحت تلمسان حاضرة من الحواضر الإسلامية، غير أن قيمة تلمسان في هذا الانتماء أصبحت تزداد من عصر إلى آخر، فمنذ عصر المرابطين أصبحت المدينة تتبوأ مكانتها بين الحواضر العلمية في بلاد المغرب الإسلامي، ففي سنة 475هـ تم فتح تلمسان من طرف يوسف بن تاشفين، وتأسيس مدينة تاغرارت، وتم بالأخص بناء مسجدها الجامع الذي سرعان ما تحول إلى مؤسسة تعليمية نقلت المدينة إلى مصاف المراكز العلمية الكبرى بالمغرب الإسلامي، فأصبحت تستقطب إليها طلاب العلم، كما ساهم هذا المعلم الديني في نبوغ عدد مهم من العلماء والفقهاء.

وفي عهد الموحدين وبرغم الفساد الذي أحدثوه في تلمسان بعد فتحها، من خلال هدم الدور، وقتل السكان، لكن المدينة سرعان ما عادت إلى مكانتها، خاصة بعدما فهم الموحدون أهميتها كحاضرة، فأعادوا بناءها وتعميرها من جديد، فعادت تلمسان إلى

نشاطها العلمي تماشياً مع حركة الموحددين الثقافية، فلذلك يمكن اعتبار فترة المرابطين و الموحددين بداية البناء الحضاري أمّا الفترة التي تليها وهي الفترة الزبانية فهي فترة الازدهار الحضاري.

ففي عهد الزبانيين أصبحت تلمسان دار ملك لهم، وبلغت أوجها كحاضرة، وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون: "ولم يزل عمران تلمسان يتزايد وخطتها تتسع، إلى أن نزلها آل زيان واتخذوها دار ملكهم وكرسيا لسلطانهم، فاخطوا بها القصور المؤنقة والمنازل الحافلة، فأصبحت أعظم أمصار المغرب، ورحل إليها الناس من القاصية، ونقت بها أسواق العلوم، ونشا بها العلماء واشتهر بها الأعلام، وضاهت أمصار الدّول الإسلامية والقواعد الخلافية (ابن خلدون، 2001م، صفحة 93).

4. القاعدة العلمية لتلمسان الزبانية

1.4 القاعدة العلمية قبل العصر الزباني

منذ العصر المرابطي أصبحت تلمسان تتهياً لأن تتحوّل إلى حاضرة علمية كبيرة في المغرب الإسلامي، لأنّها المدينة باتت تتوفر على مؤسسات دينية وتعليمية، وخاصّة المسجد الجامع، وعليه شهدت تلمسان حركة علمية كبيرة تمثلت في نبوغ عدد مهم من العلماء و الفقهاء، كما أصبحت محطة تجلب اهتمام طلاب العلم الوافدين إليها من كل مكان، فظهر في عصر المرابطين مجموعة من العلماء على رأسهم ابن مرزوق العجيسي الذي قدم إلى تلمسان مهاجراً من القيروان فكان نواة لبيت علمي هو بيت ابن مرزوق الذي سيمتد إلى العصر الزباني (يعي ابن خلدون، 1985، صفحة 114)، وفي القرن السادس الهجري نبغ عدد هام من العلماء نذكر منهم على سبيل المثال بيت المقرئ الشهير، وعلى رأسهم الجد عبد الرحمان (ابن الخطيب، 1974، صفحة 192)، كما ظهر بيت ابن صاحب الصلاة، ومنهم أبو عمرو عثمان بن صاحب الصلاة (يعي ابن خلدون، 1985، صفحة 116).

2.4 تأسيس القاعدة العلمية لحاضرة تلمسان

يعود الفضل للفقهاء الأخوين ابني الإمام في بناء قاعدة علمية بتلمسان الزبانية، لكن الفل الأكبر يعود إلى المدينة كحاضرة لرجال العلم، أمّا عن الأخوين فلا تفيدنا

المصادر التاريخية بتاريخ ولادة ابني الإمام لكنّا نقدر فترة نشأتهما في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي، حيث أنّ أبوهما قد قتل على يد رزيم سنة 683هـ، وهي السنة ذاتها التي رحل فيها الإمامين من مسقط رأسهما برشك باتجاه تونس لطلب العلم، حيث أنّه من عادة طالب العلم أن يرتحل وهو في سن العشرين، وهي فترة كان فيها بنو عبد الواد لا يزالون يعملون على الحفاظ على استقرار الوضع السياسي في مختلف أنحاء البلاد.

ومن المناطق التي كانت تشهد حالة من الاضطراب، المنطقة التي كان استقرا بها ابني الإمام، ونقصد بذلك بلاد مغراوة الواقعة شمال وانشريس، ووادي شلف إلى البحر، والممتدة ما بين وادي السبت شرقا قرب متيجة، والبطحاء غربا ناحية نهر مينة. غلبت مغراوة في أيام منديل بن عبد الرحمان على وانشريس والمدينة، واختطوا قصبة سيرات، وخرّبوا عمران متيجة، وكان أهلها يجمعون في ثلاثين مصرا، ولم تفارق مغراوة ورؤسائها حياة الظعن، فكانوا بداءة، وكان أمر المدين إلى مشائخ من أعيانها. وربما استبد بعض الشيوخ بمدينته.

وكانت مغراوة كبني عبد الواد على الدعوة المؤمنية الموحدية، حتى وطئ أرضها أبو زكريا الحفصي (التنسي، 1985، صفحة 116) سنة 632هـ فبايعته، وخالفت بذلك سياسة عبد الواد، فأوجدت السبيل عليها ليغمراسن بن زيان، ونهض إليها، فعجزت عن مقاومته، واستصرخت أبا زكريا فأصرخها، واحتل تلمسان سنة 640هـ، فبايعه يغمراسن (التنسي، 1985، الصفحات 116-118)، وعقد على مغراوة لرئيسها العباس ابن منديل، ومنحه الإستقلال الداخلي، واتخذ بحضرته الآلة وشارة الملك، ولكن هذه القوّة الأدبية لم تثبت أمام قوّة يغمراسن الحقيقية، فأجلب على مغراوة حتى استقامت على ولاءه، ولم تنتفع ببيعة الحفصيين الذين كانوا في شغل عنها، وإنّما عقد لها خالد بن أبي زكريا المنتخب- وهو ببجاية- حلفا مع صنهاجة فصار رؤسائها يلتجئون إلى جبال صنهاجة متى غلبوا على بلادهم، وشعرت بضعف فائدة هذه البيعة فحوّلت وجهها شطر مريّن

(التنسي، 1985، الصفحات 118-119)، فكانت كالمستجير من الرمضاء بالنار، ولم تكن لسياستها هذه نتيجة خارجية غير شغل آل زيان، ولا داخلية غير تشتيت شملها، فقد لحق كثير من أبطالها بغرناطة مرابطين للجهاد ومنهم من لحق بالحفصيين أو مرين.

أما في برشك (الإدرسي، 2002م، صفحة 158) مدينة ابني الإمام فاستبد بالأمر سنة 659هـ زيري بن حماد المكلاطي المدعو زيرم، وشغلت عنه الدؤل حتى قتله بنو عبد الواد سنة 708هـ، ومن ذلك نفهم أنّ مغراوة كانت ترفع راية العصيان في وجه بني زيان مستنجدة تارة بالحفصيين، وتارة أخرى ببني مرين، وفي بعض الأحيان على نفسها، كما أنّ ابني الإمام عاش في بيئة افتقدت إلى الاستقرار بسبب فقدانها إلى القوة السياسية.

هذه القوة السياسية كانت مملوكة لبني زيان التي بدأت في عهد يغمراسن حروبا على مغراوة بالتضريب بين بني مندل ورؤسائها فقتل عابد وثابت ابنا مندل أخاهما محمدا سنة 662هـ بالخميس من بسائطهم، فاختلفت كلمة مغراوة بعده، وجاس يغمراسن خلال معاقلم سنة 666هـ حتى بلغ متيجة، وأمكنه عمر بن منديل من مليانة سنة 668هـ على أن يعينه على رئاسة قومه، فخرج لإعانتته سنة 672هـ وباع منه عابد وثابت بعد حروب تنس باثني عشر ألف دينار، ومات عمر. وأجاز عابد إلى الأندلس وخلا وجه مغراوة لثابت، وغلبه يغمراسن على تنس سنة 681هـ (مبارك الميلي، 1986م، الصفحات 468-469).

وحينما توفي يغمراسن وخلفه ابنه عثمان أثخن في بلاد مغراوة، وملك مازونة سنة 686هـ، وتنس سنة 688هـ، وأعان ثابت سلطان مرين في حصار تلمسان سنة 689هـ، فاننقم منه عثمان حتى ألجأه إلى جبال صنهاجة، ثم عاد إليها سنة 693هـ حتى ألجأه إلى برشك، فحاصره بها أربعين يوما، ثم ركب البحر في أهله وولده إلى يوسف سلطان مرين، فأكرم مثواه، وقتله بعض مرين سنة 694هـ، فكفل السلطان أهله وولده، وتزوج حافدته، وبقي ابنه محمد أميرا في قومه، ومات بعده بقليل (مبارك الميلي، 1986م، صفحة 469).

واستكانت مغراوة لبني زيان ثم لمرين أثناء حصارهم الطويل لتلمسان، وبعد تعليمهم عليها، وولي يوسف بن يعقوب منهم عمر بن ويعزن بن منديل ثم ابنه محمدا، وكان راشد بن محمد بن ثابت يأمل من صهره أن يؤثره بامارة قومه، فلما خاب ظنه-كما سيخيب ظن الفضل الحفصي في صهره أبي الحسن-ثار عليه، ومملك مازونة سنة 700هـ، وشغل مرين حتى ألحقوه بزواوة سنة 704هـ، وعاد بعد مقتل صهره إلى قومه، فأجلاه أبو حمو الأول إلى زواوة أيضا سنة 708هـ، فلحق بالجيش الحفصي، وكان ذا مكانة في الدولة بفضل شجاعته، وكرم أصله، وقتله عبد الرحمان بن خلوف الصنهاجي في ملاقة بينهما حوالي 711هـ، ولحق ابنه على بيعته لدى سلاطين مرين (مبارك الميلي، 1986م، صفحة 469).

2.4 في العصر الزباني

في أيام بني زيان إزدهرت تلمسان وأصبحت أزهر مدن المغرب بعد القيروان، تونس، وفاس، ومراكش، واتسعت رقعتها حتى أصبحت تضاهي فاس، من حيث السعة، ووفرة المباني، وكثرة المساجد، وتعدد الأسواق، وفي عصرهم عاد المذهب المالكي يمثل مكانته الرفيعة من جديد في المغرب الأوسط، بعد أن فقدتها في عهد الموحدّين، وصاحبه توطّن الثقافة العربية في مختلف المجالات بانتشار اللغة العربية، وكان كلّ السلاطين يبدون إهتماما بالعلوم الإسلامية، كما أنّهم اهتموا ببناء خزانات الكتب التي توضع بها المخطوطات، ونشطت حركة نقل العلوم، وراجت تجارة الكتب (ابن الأحمر، 2001، الصفحات 177-178).

وفي هذا الصدد يحدثنا البكري فيقول: "تلمسان كانت دائماً بلد علم وعلماء ومركز سنّة وجماعة، وكان بنو زيان من رعاة العلوم، فاستقدموا أهل العلم والأدب وخاصة الشعراء، وأحاطوا أنفسهم بالفقهاء على مثال ما كان يفعله جيرانهم ومنافسهم بنو مرين وبنو وطاس، وكذلك كثر في تلمسان أهل التصوّف والصلحاء والعبّاد (ابن الأحمر، 2001، صفحة 41).

فكان يغمراسن بن زيان شديد العناية بالثقافة يقرب العلماء ويشجّع الأدباء، فكان يحلّوله أحيانا أن يدخل المسجد الجامع لسماع الدروس التي كان الشيوخ يلقونها على الطلبة، كما كان أبو حمو يسعى في أن تكون تلمسان كعبة قصّاد العلم مثل

العواصم العربية، وبلاطه كان يزخر بالعلماء والأدباء على غرار بلاط فاس، وبلاط تونس، وكان أبو تاشفين ينافس الحفصيين والمرينيين في تقريب العلماء والأدباء من مجلسه، ومما يدلّ على مدى تقريب أبي حمو موسى للعلم اهتمامه بجمع الكتب، ويبدو حرصه على ذلك في محاولته جلب عبد الرحمان بن خلدون إلى بلاطه، فلم يحصل عليه، ولكنه حصل على أخيه يحيى بن خلدون، الذي أَرخ للدولة التي خدمها حتى هلك سنة 780 هـ (محمّد بن عمرو الطمار، 2006، صفحة 209).

3.4 أهمية تلمسان بالنسبة للعلماء الوافدين

من أبرز العلماء الذين قدموا إلى تلمسان في العصر الزباني الإخوة ابني الإمام، وهما العالمان الحافظان الشهيران غربا وشرقا أبو زيد عبد الرحمن، وأبو موسى عيسى ولدا بقرية بَرشكحيث كان والدهما محمد بن عبد الله التلمساني إماما بأحد مساجد المدينة فلقبوا بـ"ابنا الإمام" (محمّد بن عمرو الطمار، 2006، صفحة 209).

أجمعا الأخوين على مغارة البلاد - برشك- بعد مقتل والدهما من طرف بن حماد المكلاطي إلى تونس فدرسا العلوم الدينية على يد ابن القطان، وابن جماعة، كما اجتمعا بفاس بتلامذة ابن زيتون، وأبي عبد الله شعيب الدكالي، ثم عادا إلى المغرب الأوسط بحظ وافر من العلم واستقرا بمليانة عاصمة مغراوة (عبد الرحمان الجيلالي، 1982، صفحة 164)، والسلطان أبو يعقوب المريني محاصرا لتلمسان، حيث اتخذهما منديل الكناني لتعليم ولده، ثمّ "نزلا تلمسان في أيام السلطان المرحوم أبي حمو بن السلطان أبي سعيد، فأكرم مثواهما وابتنى لهما المدرسة المسماة باسمهما داخل باب كشوطة" (يحيى ابن خلدون، 1985، صفحة 135)، وكلّفهما بالتدريس فيها والإشراف عليها (عبد الرحمان الجيلالي، 1982، صفحة 164) (عبد العزيز فيلاي، د ت، صفحة 142)، وتمّ اختطاط هذه المدرسة سنة 710 هـ، وكانت أوّل مدرسة علمية بتلمسان (حاجيات، 1974م، صفحة 138). وبذلك يلاحظ أنّ هذين العالمين اختارا الارتحال إلى المكان المناسب ونقصد بذلك تلمسان مفضلاتها على مليانة، برغم أنّهما كان يمارسان نفس المهنة، وهي مهنة التدريس، لكن الاختلاف يكمن في أنّهما كلّفا في مليانة بتدريس أبناء منديل الكناني، أمّا في تلمسان فقد كانت مهمة تعليم الطلاب القادمين من كل مكان، وهي تتناسب مع مكانتهما العلمية.

وفي مدرستهما "رأسا النَّاس، وجالسا الملوك، على هدي العلماء، وسمة الرؤساء، وتركنا بتلمسان خلْقًا كثيرًا ينتحلون العلم كبيرًا وصغيرًا، بلغ كثير منهم مقام التدريس والعلم والفتيا في النوازل نجابة درس" (يحي ابن خلدون، 1985، صفحة 130). كما يذكر التلمساني أن: "أبا حمو اغتبط بهما، وأقاما عنده على هدي أهل العلم وسنهم، كما اختط لهما أبو حمو إلى جانب المدرسة مسجدًا ومنزلين (محمّد بن عمرو الطمار، 2006، صفحة 122)، وزيادة على التدريس اختص السلطان الزياني الإمام عبد الرحمان بن زيد بمجلسه للمشورة والفتوى، كما أرسله ممثلًا له على بلاد مغراوة (بن داود نصر الدين، 2010، صفحة 130).

استمر الأخان على صحبتهما لأبي حمّو الأوّل، وبعد وفاته بقيت مكانتهما محفوظة عند ابنه أبا تاشفين فلازما مجلسه مدّة سنتين، ثم غادرا إلى المشرق لأداء فريضة الحج إلى البقاع المقدسة سنة 720هـ، وهناك لقيا العلماء والشيوخ، ومنهم جلال الدين القزويني، جلسا له وانتفعا به في مختلف العلوم، كما اجتمعا بشيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية فناظراه وظهراه عليه (جورج مارسي، 2004، صفحة 52).

ومن المشرق عادا الإمامين إلى بلاد المغرب فتوقفا عند حاضرة المرينيين فاس، وجوهرتا جامع القرويين فلقيا علمائها وفقهائها، ومنها عادا ليستقرا بتلمسان من جديد ويواصلتا مسيرتهما التعليمية، بعدما زادت شهرتهما وتألقهما ممّا جعل توافد الطلبة يتزايد عليهما من كل حذب وصوب، وقد وفقا في تكوين جيل من العلماء في مختلف العلوم.

وبرغم احتلال المرينيين لتلمسان سنة 737هـ فإنّ السلطان المريني أبي الحسن عرف منزلتهما فأكرمهما، ومكّن لهما من مواصلة رسالتهما التعليمية وقرّهما إليه، وظلّت مهنتهما في تكوين الفقهاء، وصناعة العلماء، فبرغم تغيّر السلطة الحاكمة إلّا أنّ ذلك لم يؤثر على قيمة العالمين، ذلك أنّ السلطة المرينية كانت أشبه بالسلطة الزيانية في تقدير دور العلماء، يضاف إلى ذلك وجه الشبه بين تلمسان، وفاس عاصمة المرينيين في وظيفتهما الحضارية.

4. خاتمة:

بقدر ما تحتف المدينة بعلمائها بقدر ما تكون المدينة ذا أهمية بالغة بالنسبة للعلماء، لأنها توفر ما لا توفره أماكن أخرى، فلا يمكن مثلاً أن يكون للعالم دور في الريف لأنّ المجال هناك ضيق، أمّا الحاضرة فإنّها توفر إمكانيّة البروز والنبوغ، كما أنّها توفر من الوظائف الهامة ما لا توفره أماكن أخرى، خاصّة إذا كانت المدينة عاصمة لسلطان سياسي، وهذا الأمر ينطبق على مدينة تلمسان عاصمة الزنانيين التي منحت بفضل موقعها، وما توفرها بيئتها، فضلاً عن رصيدها التاريخي والحضاري المناخ المناسب للعلماء للظهور والمساهمة في المشهد الحضاري العام للمدينة، لذلك فقد زحرت تلمسان بعدد هام من العلماء الذين استفادوا من القيمة التاريخية والحضارية للمدينة، وشكلوا نسيجها الحضاري، ومن خلال هذا المقال أبرزنا كيف أدّت مدينة تلمسان دوراً بالغ الأهمية بالنسبة لابني الإمام، فاحتضنتهما علمياً ومهنياً، سياسياً، ولم يختلف مكانتهما بتلمسان سواء كانت المدينة تحت سلطة الزنانيين أو تحت سيطرة المرينيين.

5. قائمة المراجع:

- ابن أبي زرع (1972)، ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس. الرباط: دار المنصور للطباعة والنشر.
- ابن الأحمر (2001)، تاريخ الدولة الزبانية بتلمسان ط1، ت. و. سلامة، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية للنشر والتوزيع.
- ابن الخطيب لسان الدين (1974)، الإحاطة في أخبار غرناطة، م2، ت. ع. عنان، القاهرة: مكتبة الخانجي.
- ابن القاضي (1972). جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس. الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة.
- ابن حوقل (1996)، صورة الأرض، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة.
- ابن خلدون (2001)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج7، ض. و. زكار (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر.
- الإدريسي (1983). القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس مقتبس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق . (ت. ا. العربي، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- الإدريسي (2002). م. (نزهة المشتاق. القاهرة: مكتبة الثقافة الإسلامية.
- البكري). د ت. (المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب. القاهرة: دار الكتاب الإسلامي.

- التنسي. (1985). تاريخ تلمسان ملوك بني زيان مقتطف من كتاب نظم الدروالعقيان في بيان شرف بني زيان، ح. و. بوعباد (،الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- السلوي، (، 1954)الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج1، ت. و. الناصري، الدار البيضاء: دار الكتاب.
- العبدري(2007)، رحلة العبدري، ط1، ت. س. بوفلاقة، عناية: مطبعة المعارف، مؤسسة بونة للبحوث والدراسات.
- اليعقوبي(2002). م.(البلدان). و. ح. ضناوي، بيروت: دار الكتب العلمية.
- بن داود نصر الدين.(2010). بيوتات العلماء بتلمسان، من القرن 7هـ /13م إلى 16/10م). إ. م. عمر (، تلمسان: جامعة أبي بكر بلقايد.
- جورج مارس (2004) ، مدن الفن الشهيرة تلمسان). ت. س. دحماني، الجزائر: دار التل للنشر.
- حاجيات، ع (1974) ، أبو حمو موسى الثاني حياته وآثاره.الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- حسن الوزان (1983)، وصف إفريقيا، ج2، ت. م. الأخضر، بيروت: دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- عبد الرحمان الجيلالي (1982) ، تاريخ الجزائر العام، ج2 (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- عبد العزيز فيلالي د ت، تلمسان في العهد الزياني، ج1 ، الجزائر: موفم للنشر والتوزيع.
- مبارك الميلي(1986) ، تاريخ الجزائر في القديم والحديث.الجزائر: المؤسسة. الوطنية للكتاب.
- محمد بن عمرو الطمار(2006) ، تاريخ الأدب الجزائري، ت. ع، مرتاض، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- مؤلف مجهول (1985)، الاستبصار في عجائب الأمصار، ن. و. زغلول، الدار البيضاء: دار النشر المغربية.
- يحي ابن خلدون(1985) ، بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد، ج1، ت. ع. حاجيات، الجزائر: المكتبة الوطنية.